

Dirassat & Abhath
The Arabic Journal of Human
and Social Sciences



مجلة دراسات وأبحاث
المجلة العربية في العلوم الإنسانية
والاجتماعية

EISSN: 2253-0363
ISSN : 1112-9751

حركة المجتمع الإسلامي بين رؤية أرنولد توينبي ومالك بن نبي
The movement of Islamic society between the vision
of Malek Bennabi and Arnold Toynbee

د/ نبيلة شلابي Dr. NABILA CHALABI

أستاذة محاضرة قسم ب- جامعة الشهيد زيان عاشور، الجلفة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية -قسم التاريخ-

nabila.chalabi@univ-djelfa.dz

تاريخ النشر: 2026/07/15

تاريخ القبول: 2025/12/08

تاريخ الاستلام: 2025/09/13

المخلص:

تسعى هذه الدراسة إلى إجراء مقارنة بين رؤيتي أرنولد توينبي ومالك بن نبي، حيث كانت كل رؤية منهما مبنية على سياق فكري تراكمي وقراءة فاحصة للتاريخ، إلا أن كلاهما قد قدم للباحث في مجال فلسفة التاريخ رؤيتين مختلفتين؛ جاءت الأولى بما أسماها "نظرية التحدي والاستجابة"، أما رؤية مالك بن نبي فجعل من الأولى مقاربة أخضعها لنظرية "الوعد والوعيد"، وعليه يكمن الفارق بين النظريتين أن توينبي اعتبر الحضارة الإسلامية أو تاريخ المسلمين كغيره من الحضارات تنطبق عليه نظريته، أما مالك بن نبي فاعتبر أن ميزة الحضارة الإسلامية وحركة تاريخها عمل في إطار الوعد والوعيد.

الكلمات المفتاحية: حركة، المجتمع، الإسلام، توينبي، بن نبي

Abstract:

This study aims to compare the visions of Arnold Toynbee and Malek Bennabi, as each vision was based on a cumulative intellectual context and a careful reading of history. However, both presented two different visions to the researcher in the field of philosophy of history. The first came with what he called the "theory of challenge and response," while Malek Bennabi's vision made the first an approach that he subjected to the theory of "promise and threat." Therefore, the difference between the two visions lies in the fact that Toynbee considered Islamic civilization or the history of Muslims like other civilizations to which his theory applies, while Malek Bennabi considered the characteristic of Islamic civilization and the movement of its history to operate within the framework of promise and threat.

Keywords: Movement, society, Islam, Toynbee, Bennabi

مقدمة

وَنُظَرُ إِلَيْهِ ظَاهِرًا وَلَيْسَ بَاطِنًا، وَهَذِهِ الدِّرَاسَةُ هِيَ بِصَدَدِ تَنَاوُلِ
نَظَرِيَّتَيْنِ كَانَتَا مَتَأَثِّرَتَيْنِ بَابْنِ خَلْدُونِ أَيْمًا تَأَثَّرَ مَعَ انْفِرَادِهِمَا
بِخَاصِيَّتِهِمَا ظَهَرَتَا فِي الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ مِيلَادِي، وَنَعْنِي بِالنَّظَرِيَّتَيْنِ
: الْأُولَى نَظَرِيَّةُ تَوَيْنْبِي "التَّحْدِي وَالاسْتِجَابَةُ" وَالثَّانِيَةُ لَيْسَتْ
نَظَرِيَّةً بِقَدَرِ مَا هِيَ إِعَادَةُ صِيَاغَةٍ لِسَابِقَتِهَا (مَقَارِبَةٍ) تَحْتَ مَسْمُوعِ
"الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ" وَالَّتِي قَالَ بِهَا مَالِكُ بْنُ نَبِي.

وَتَتَمَحَوَّرُ إِشْكَالِيَّةُ هَذِهِ الدِّرَاسَةِ حَوْلَ حَرَكَةِ الْمَجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيِّ
مِنَ التَّحْدِي وَالاسْتِجَابَةِ إِلَى مَقَارِبَةِ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، وَيُمْكِنُنَا
طَرَحَ الْإِشْكَالِيَّةَ بِالصِّيغَةِ التَّالِيَةِ:

إِلَى أَيْ مَدَى وَفَقَ مَالِكُ بْنُ نَبِي فِي إِعَادَةِ صِيَاغَتِهِ لِنَظَرِيَّةِ التَّحْدِي
وَالاسْتِجَابَةِ الَّتِي قَالَ بِهَا تَوَيْنْبِي فِي ضَوْءِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي
تَطْبِيقِهَا عَلَى حَرَكَةِ الْمَجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيِّ؟

وَلِمُعَالَجَةِ هَذِهِ الْإِشْكَالِيَّةِ قَسَمْنَا هَذِهِ الدِّرَاسَةَ إِلَى :

المحور الأول : حركة المجتمع الإسلامي في ضوء نظرية التحدي
والاستجابة

ويحتوي هذا المحور على العناصر التالية:

إن الحديث عن حركة المجتمعات هو حديث عن
حركة التاريخ ككل، وبالتالي الغوص في فلسفة التاريخ، وهذه
الأخيرة تحوي في جعبتها الكثير من الأمور المتعلقة بالتاريخ
البشري، ومن بين تلك الأمور النظريات المفسرة لحركة التاريخ؛
إذ أَنَّ مَهْمَةَ النَّظَرِيَّةِ التَّارِيخِيَّةِ أَنْ تَفَسِّرَ الْأَحْدَاثَ وَتُعَقِّلَ
التَّطَوُّرَاتِ التَّارِيخِيَّةِ، وَمَا مِنْ نَظَرِيَّةٍ إِلَّا وَلَهَا وَجْهَانِ: أَنَّهَا صَالِحَةٌ
مَادَامَتْ أَدَاةً لِلْمَعْقُولِيَّةِ، وَهِيَ فَاسِدَةٌ حِينَمَا تَدَّعِي الْإِطْلَاقَ
وَالْتَسَلُّطَ عَلَى كُلِّ عَصَرٍ، وَلَقَدْ ظَهَرَتْ عِدَّةُ نَظَرِيَّاتٍ تَحَاوَلَتْ
تَفْسِيرَ الْحَرَكَةِ التَّارِيخِيَّةِ مِنْذُ حَوَالِي الْقَرْنِ الرَّابِعِ عَشَرَ مِيلَادِي،
وَالَّتِي شَمِلَتْ عَمَالِقَةَ الْمُفَسِّرِينَ أَمْثَالَ الْقَدِّيسِ أَوْغُسْطِينَ مِنْ
الْغَرْبِ، وَابْنَ خَلْدُونِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَغَيْرَهُمَا كَثِيرٌ، وَتَكْمُنُ أَهْمِيَّةُ
النَّظَرِيَّاتِ فِي أَنَّهَا تَقَدِّمُ لَنَا تَفْسِيرًا مَعْقُولًا لِلتَّارِيخِ يُمَكِّنُ أَنْ يُزِيلَ
الضَّبَابِيَّةَ الَّتِي حَجَبَتْ السُّنَنَ التَّارِيخِيَّةَ، وَقَوَانِينَهَا الَّتِي يَسِيرُ
وَفَقْهَا التَّارِيخُ الَّذِي كَانَ مِنْذُ زَمَنِ طَوِيلٍ يُلْقَى إِلْقَاءً سَرْدِيًّا وَصَفِيًّا

تتوتر بدورها لدرجة أنها تتحدى جميع العوائق، وعلى الخصوص منها العائق الطبيعي؛ إذ أن أي تحدٍ للطبيعة في نظره إنما يبرهن على أن هذا الشعب أو ذاك قادر على صنع تاريخه⁽⁴⁾، وبالتالي استمرار حركته نحو بناء الحضارة.

3 - المجتمع ودراسة التاريخ عند توينبي

يرى توينبي أن التاريخ هو إحدى النوافذ التي لا تحصى، التي تطل على الحقيقة فهو يُعرفه أنه: "إنجاز للخطّة الإلهية، وهو إبداع الله في حركته؛ من الله منبعه وإلى الله غايته"⁽⁵⁾، وقد حاول أن يدرس تاريخ البشرية بصورة تجريبية، ليتوصل إلى مبادئ وقوانين تصدق على التاريخ ككل، وأراد أن يُجرب تناول الشؤون الاجتماعية البشرية بالأسلوب العلمي، لذا بدأ بالبحث عن وحدة تكون حقلاً مفهوماً للدراسة، فوجدها في الحضارة التي تنتظم عدة أمم وانطلق من مبدأ أن مادة التاريخ هي حياة أقسام موحدة من البشرية سمّاها المجتمعات⁽⁶⁾.

والمجتمعات عند توينبي قسمان: مجتمعات بدائية ومجتمعات متحضرة

- المجتمعات البدائية: هي مجتمعات راكدة لأحد احتمالين: إما أن التحدي لم يكن كافياً، وإما أن هذه الجماعات قد عمدت إلى الفرار من طريقه.

- المجتمعات المتحضرة: ويطلق عليها اسم حضارات أي المجتمعات التي تسير في طريق الحضارة، وهي التي تحولت من الركود إلى الحركة⁽⁷⁾.

ثانياً: الحضارة الإسلامية (حركة المجتمع الإسلامي) في ضوء نظرية التحدي والاستجابة

يرى توينبي أن الأمة الإسلامية كغيرها من الأمم ينطبق عليها قانون التحدي والاستجابة، فهو يعتبر أن مجيء الإسلام كان استجابة ناجحة قام بها المجتمع السرياني رداً على تحدي الهيلينية⁽⁸⁾، وقد مر المجتمع الإسلامي -حسب توينبي- في مساره الحضاري بسلسلة من التحديات تبعتها سلسلة من الاستجابات استطاع معها التغلب على تلك التحديات، ومن تلك التحديات مثلاً: من خلافة أبي بكر إلى نهاية فترة عثمان رضي الله عنهما، كان التحدي هو كيفية تأمين قلب الدولة وعمقها الاستراتيجي، وكانت الاستجابة حروب الردة والفتوحات الإسلامية، وبعد سقوط الخلافة العثمانية كان التحدي كيفية الانتقال والهوض من حالة التخلف واستعادة الوحدة، فكانت الاستجابة بظهور الصحوة الإسلامية⁽⁹⁾.

- أرنولد توينبي ونظريته الحضارية "التحدي والاستجابة"

- الحضارة الإسلامية (حركة المجتمع الإسلامي) في ضوء نظرية التحدي والاستجابة

المحور الثاني: "الوعد والوعيد" صياغة قرآنية جديدة لنظرية التحدي والاستجابة ويحتوي هذا المحور على العناصر التالية:

- مالك بن نبي ورؤيته للمجتمع

- حركة المجتمع المسلم وفق مبدأ "الوعد والوعيد" صياغة قرآنية لنظرية التحدي والاستجابة

المحور الأول: حركة المجتمع الإسلامي في ضوء نظرية التحدي والاستجابة

قبل الحديث عن المجتمع أو الحضارة الإسلامية في ضوء نظرية التحدي والاستجابة لابد أولاً التعرف على هذه النظرية وصاحبها بشيء من الإيجاز.

أولاً: أرنولد توينبي ونظريته الحضارية "التحدي والاستجابة"

1- أرنولد توينبي: هو جون أرنولد توينبي مؤرخ إنجليزي عاش ما بين 1889م و1975م، وقد شهد تطورات خطيرة في العالم في تلك الفترة (الثورة الصناعية، الأطماع الاستعمارية، الحربين العالميتين الأولى والثانية...)، فانفعل بالأحداث المعاصرة، وشعر بالقلق على مصير الحضارة الغربية من الزوال، فانكب يدرس الحضارات القديمة لمعرفة أسباب تدهورها وفنائها... ترك أرنولد توينبي عدة مؤلفات تاريخية كان أشهرها مؤلفه الضخم "دراسة التاريخ"⁽¹⁾

2_ نظرية التحدي والاستجابة عند توينبي

يطلق الدارسون على نظرية توينبي في قيام وسقوط الحضارات الإنسانية بنظرية التحدي والاستجابة، فهي في نظر توينبي العامل الحقيقي المتحكم في قيام الحضارات وارتقاءها ثم سقوطها واندثارها⁽²⁾.

معنى التحدي والاستجابة: فمن حيث اللفظ؛ التحدي يشير إلى وجود خطر أو تهديد أو مشكلة، وغيرها من المعاني المتقاربة، أما لفظ الاستجابة فيشير إلى الرد والجواب والتجاوز...، أما من حيث المعنى فالتحدي هو وجود ظروف صعبة تواجه الإنسان أو المجتمع في طريق بنائه للحضارة، والاستجابة هي التغلب على تلك الشدائد والظروف الصعبة⁽³⁾.

فتوينبي يرى أن تحدي البيئة وحوافز مختلفة كحافز الضربات وحافز الضغوط وغيرها من الحوافز كلها تفرض استجابة فيقول: "هل ثمة تحدٍ أشد من أن يستثير استجابة"، وهو يعني بذلك أن البناء التاريخي إنما هو وليد حالة نفسية

أفكاره وخلاصة تجاربه، وقدم الأنظمة الإسلامية في قالب حضاري وأسلوب معاصر فكان صاحب مدرسة نقلت إلى العالم جوهر الإسلام وبدائله⁽¹³⁾.

ومالك بن نبي هو الحاج بن لخضر بن مصطفى بن نبي ولد في 01 جانفي 1905م في مدينة قسنطينة بالجزائر، وقد امتدت حياته ما بين أوائل القرن العشرين وثلثه الأخير (توفي في 31 أكتوبر 1973م) في بلاد مزقتها الأهواء، وعقها الأبناء، فاستضعفها الأعداء، وراحوا يتفنونون في نهبا و استلابها في محاولة لمسح شخصيتها، وتزوير حضارتها، واستبدال عقيدتها ولغتها في غفلة من أبنائها، الذين تخلو عن دورهم في الدعوة، والتحضير، والشهادة على كل الشعوب؛ فهو ينتهي إلى بلد عربي إسلامي (الجزائر)، عانى من تجربة الصدام بين المجتمع الأوروبي المادي، والمجتمع الإسلامي ما لم يعاناه بلد آخر. فكان لهذه الظروف إضافة إلى عدة مؤثرات أخرى (العائلة، المحيط، المدرسة، القراءات، المختلفة العربية منها والغربية...) أثرا كبيرا في توجيه فكره⁽¹⁴⁾ نحو المشكلة الجوهرية للمجتمعات وهي الحضارة والتي تمحورت حولها جل مؤلفاته منها : شروط النهضة، ميلاد مجتمع، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، الظاهرة القرآنية، وغيرها من المؤلفات وهي كثيرة.

2- حركة المجتمع عند مالك بن نبي

يقول مالك بن نبي: "إن الطبيعة توجد النوع لكن التاريخ يصنع المجتمع، وهدف الطبيعة هو مجرد المحافظة على البقاء بينما غاية التاريخ أن يسير بركب التقدم نحو شكل من أشكال الحياة الراقية، هو ما نطلق عليه اسم حضارة"⁽¹⁵⁾ نفهم من هذا الكلام أن سر حركة التاريخ عند ابن نبي هي حركة المجتمع نحو بناء الحضارة.

وانطلاقا من مبدأ الحركة فالمجتمع عنده هو الجماعة التي تغير دائما خصائصها الاجتماعية بإنتاج وسائل التغيير مع عملها بالهدف الذي تسعى إليه من وراء هذا التغيير⁽¹⁶⁾.

والمجتمع عند مالك بن نبي نوعان:

أ_ المجتمع البدائي (الطبيعي): وهو العالم الساكن ذي المعالم الثابتة كالقبيلة العربية في العصر الجاهلي.

ب_ المجتمع التاريخي: وهو المجتمع المتحرك الذي يخضع لقانون التغيير والذي يعدل معاملته من جذورها وهو نوعان:

- المجتمع الجغرافي: والذي يكون ميلاده إجابة عن الظروف الطبيعية.

ولقد شكلت الحضارة الإسلامية بدورها تحديا للحضارة المسيحية الأوروبية في امتدادها إلى إسبانيا من جهة، ثم أجزاء من شرق أوروبا على أيدي العثمانيين من جهة أخرى، وكذلك حدثت تحديات عنيفة خلال العصور الوسطى من الحضارة الأوروبية لحضارة الإسلام تمثلت في الحروب الصليبية، وقد كان أعمق وأخطر وأبعد التحديات أثرا على العالم الإسلامي، هو الحضارة الأوروبية الحديثة، فهي أهم ظاهرة في العصر الحديث، أما عن استجابة حضارة الإسلام للتحدي الغربي فتمثل في مظهرين⁽¹⁰⁾:

_ مظهر التزمت: تحت اسم السلفية التي واجهت تحدي الحضارة الغربية (بتفوقها العسكري والتكنولوجي والاقتصادي) بتفوقها على نفسها، متخذة من الدين درعا من العدوان الخارجي بقيادة الوهابية (الحجاز)، والسنوسية (المغرب)، والمهدية (السودان)...، فكانت استجابتها فاشلة لأنها لم تقدم طاقات خلاقة صادرة عن روح أصلية.

_ مظهر التشكل: حيث وجد المتشكل أن أفضل وسيلة لحماية نفسه من الخطر (الغربي) أن يتعرف على سر تفوق عدوه فيطرح جانبا وسائل الحرب التقليدية وتراثه الماضي ليقتبس مظاهر الحضارة المتحدية، وحاول التشكل بها، هذا المظهر مثلته حركة محمد علي بمصر، وحركة كمال أتاتورك في تركيا...، لكن هذه الأخرى كانت استجابة فاشلة لأنها لم تقدم إسهاما إبداعيا في تيار الحضارة القائمة فهي عملية تقليد⁽¹¹⁾، في نظر تويني.

ورغم الاستجابات الفاشلة للحضارة الإسلامية إلا أنها ستبقى حضارة حية في نظر تويني رغم النكبات التي حلت بها لوقوع معظم أقطارها فريسة للاستعمار في القرن التاسع عشر، إذ تكمن في الحضارة الإسلامية طاقات غير قائمة في الحضارات الغربية ما يرسحها أن تكون حضارة المستقبل⁽¹²⁾، وهنا تظهر نظرة تويني التفاؤلية في تفسيره للحركة التاريخية للمجتمعات. المحور الثاني : "الوعد والوعيد" صياغة قرآنية جديدة لنظرية التحدي والاستجابة

قبل الحديث عن هذه الصياغة الجديدة لنظرية التحدي والاستجابة لابد من إشارة موجزة لواضعها -مالك بن نبي- ورؤيته للمجتمع.

أولا : مالك بن نبي ورؤيته للمجتمع

1- مالك بن نبي: يعد مالك بن نبي ظاهرة بارزة في خريطة الفكر العربي الإسلامي المعاصر؛ فقد أعطى الفكر الإسلامي عصارة

- المجتمع الفكري (الإيديولوجي) : والذي يكون ميلاده تلبية لنداء فكرة.

وللمجتمع حسب مالك بن نبي ثلاث خصائص: حركة، وإنتاج لأسباب هذه الحركة، وتحديد لاتجاه هذه الحركة⁽¹⁷⁾، وبذلك تكسب الجماعة الإنسانية صفة المجتمع عندما تشرع في الحركة، أي عندما تبدأ في تغيير نفسها من أجل الوصول إلى غايتها (الحضارة)⁽¹⁸⁾.

ثانيا: حركة المجتمع المسلم وفق مبدأ "الوعد والوعيد" صياغة قرآنية لنظرية التحدي والاستجابة

يرى مالك بن نبي أنه بإمكان أي مجتمع الدخول في دورة حضارية جديدة إذا أراد ذلك وخطط له، ذلك أن التطور الاجتماعي محكوم بعوامل نفسية ومعنوية غير مادية، مما يُمكن المجتمع من التحكم في قوانينها ليعُدّل من حياته، ويصل إلى غاياته⁽¹⁹⁾، لذلك فهو يستشهد مرارا بالآية الكريمة: { إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ } (سورة الرعد، الآية: 11)، تأكيداً منه لمفهومين في فكره:

- وجود العالم الغيبي في أي تغيير يحصل على المستوى النفسي، والاجتماعي، والتاريخي، كما يقول: "هناك خلف الأسباب القريبة أسباب بعيدة تخلع على تفسير التاريخ طابعا ميتافيزيقيا أو كونيا"⁽²⁰⁾.

- إمكان الدخول في دورة حضارية جديدة عن طريق تنظيم الثروة البشرية، والمادية، وإعادة تأهيلها، وهو ما يشترط التخطيط المنظم لتفعيل العناصر الأساسية الثلاثة المكوّنة لأي دورة حضارية (الانسان، والتراب، والوقت)⁽²¹⁾.

وعلى هذه الخلفية اهتم مالك بن نبي بنظرية التحدي والاستجابة التي قال بها توينبي، والتي تُشير إلى أن أقول أي حضارة في التاريخ إنما هو نتيجة الإخفاق المتتالي الذي مُنبت به استجابة مجتمع ما لتحدي معين، فالاستجابات الناجحة تكون دائما - كما يؤكد توينبي - متناسبة مع التحدي الذي تواجهه حضارة ما، وكلما كان التحدي عظيما كانت الاستجابة عظيمة أيضاً، ولكن بشرط أن لا يكون ذلك التحدي شديد الصعوبة، وألا يكون كذلك شديد السهولة، وإنما يجب أن يكون في درجة التحدي المناسب القادر على إحداث الاستجابة التي من شأنها أن تؤدي إلى النتيجة المطلوبة⁽²²⁾.

فقد أطلع مالك بن نبي على آراء توينبي فوجدها مُقنعة، لذلك أعاد صياغتها في ضوء القرآن الكريم إذ يقول: "ونحن يُمكننا إلى حدّ ما أن نصوغ هذا الرأي الذي ذهب إليه المؤرخ- يعني توينبي-

صياغة جديدة في ضوء القرآن الكريم، فقد نستطيع- مادامنا لم نصل بهذه الطريقة إلى تفسير واضح لمنشأ الحركة التي ولدت المجتمع الإسلامي وغاياته التاريخية- أن نفسّر هذه الحركة بالعوامل النفسانية التي حفّزت القوة الروحية في هذا المجتمع وشروط حركته عبر القرون"⁽²³⁾.

فقد وجد ابن نبي أن القرآن الكريم قد وضع الضمير المسلم بين حدّين متوازيين هما: الوعد والوعيد؛ أي أنّه قد وضعه في أنسب الظروف التي من شأنها أن تُحدث استجابة لتحدي هو في أساسه روعي⁽²⁴⁾.

فالوعد هو الحد الأدنى الذي لا يوجد دونه جهد مؤثّر، وقد أعطى له مالك بن نبي مثالا بقصة المرأة الزانية التي أتت إلى النبي صلى الله عليه وسلم لإقامة حدّ الزنا عليها، وهذا ما يبرز قيمة الوعد في توجيه الطاقات النفسية في حالة معينة⁽²⁵⁾.

والوعد هو الحد الأعلى الذي يُصبح فيه الجهد من ورائه مستحيلاً، حين تطفئ قساوة التحدي على القوة الروحية التي منحت للإنسان، ويعطي ابن نبي مثالا لذلك بحالة بلال الحبشي رضي الله عنه الروحية أثناء تعذيبه على يد قريش، وهو يكرر إجابته على تحدي قريش (أحد..أحد...)، ففي تلك اللحظة التعذيبية القاسية كانت روح بلال منغمرة في فيض نوراني هو وعد الله الحق، لذلك لم تستطع أي قوة في الأرض أن تخفض إصبعه⁽²⁶⁾.

فالضمير المسلم وضع بين حدّين العمل المؤثر؛ الحدّان اللذان ينطبقان على مفهوم الآيتين الكريمتين:

قال تعالى: { فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ } (سورة الأعراف، الآية: 99)

قال تعالى: { إِنَّهُ لَا يَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ } (سورة يوسف، الآية: 87)

وبين هذين الحدّين تقف القوة الروحية متناسبة مع الجهد الفعال الذي يبذله مجتمع يعمل طبقاً لغاياته⁽²⁷⁾.

و حركة المجتمع المسلم التي تقع بين حدّين الوعد والوعيد هي في الحقيقة حركة تنزع نحو السمو إلى أعلى وتحلق فوق ما هو أدنى بفضل استناد العمل المُثمر على القوة الروحية، والقرآن الكريم يعرض صورة لهذين الحدّين في قوله تعالى: { جُولَيْنِ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مَتًّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ كَفُورٌ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضُرٍّ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ } (سورة هود، الآيتين 10، 11).

الكريم قد وضع ضمير المسلم بين حدّي الوعد والوعيد؛ أي في أنسب الظروف التي من شأنها أن تحدث استجابة لتحدٍ روحي في أساسه، فتوصل إلى أن حركة المجتمع الإسلامي بين حدي الوعد والوعيد هو في حقيقة الأمر راجع إلى مجموع العوامل النفسية الذي يعد ناتجا عن بعض القوى الروحية هي التي تجعل من النفس المحرك الجوهرى للتاريخ الإنساني.

وبذلك يكون ابن نبي مُتجاوزاً لتويني رغم أنه أعاد صياغة نظريته، حين أرجع منشئ الحركة التي ولدت المجتمع الإسلامي وغاياته التاريخية إلى العوامل النفسية التي حقّزت القوة الروحية في هذا المجتمع بدل العوامل الطبيعية التي يركز عليها توينبي في نظريته.

الهوامش:

(1): أمانة تشيكو، مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي وأرنولد توينبي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط1989م، ص65. وينظر: رأفت الشيخ، تفسير مسار التاريخ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر، د.ط.، 2000م، ص193. وينظر: حسين محمد سبتي، أعلام فلسفة التاريخ، تق: ساسين عساف، المكتب العالمي للطباعة والنشر، د.م، 1996م، ص142.

(2): جمال بروال، الدورة الحضارية بين فكر مالك بن نبي وأزوالد شبنجلر، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الفلسفة، قسم الفلسفة، جامعة الحاج لخضر باتنة، 2003م، ص45.

(3): المرجع نفسه، ص37، نقلا عن: عكاشة شايف، الصراع الحضاري في الإسلام، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984م، ص57.

(4): لخضر شريط، في الحركة التاريخية وتفسير التطور الحضاري عند مالك بن نبي، تق عبد الكريم غريب، منشورات عالم التربية، الجزائر، ط1، 2008م، ص45.

(5): ألبان ويدجيري، المذاهب الكبرى في التاريخ من كونفوشيوس إلى توينبي، تر: ذوقان قرقوط، دار القلم، بيروت- لبنان، د.ط، د.ت، ص223.

(6): أمانة تشيكو، مفهوم الحضارة، ص70.

(7): نورة خالد السعد، التغيير الاجتماعي في فكر مالك بن نبي، دار السعودية للنشر والتوزيع، ط1، 1997م، ص73.

(8): أحمد محمود صبيح، في فلسفة التاريخ، دار المعرفة الجامعية، د.م، ط1996م، ص287.

فالقوة الروحية التي تتطابق مع العمل المثمر الفعال- حسب ابن نبي- تقع بين حالين من أحوال النفس لا يوجد وراءهما إلا الخمول والرخاوة في جانب، واليأس والعجز في جانب آخر⁽²⁸⁾.

خلاصة:

من خلال ما تقدّم عرضه نجد أنّ مالك بن نبي أعاد صياغة نظرية توينبي في تفسيره لحركة المجتمع الإسلامي في ضوء القرآن الكريم، لكن هذا لا يعني أنه لم يتجاوزه، ففهم نظرية توينبي في ضوء القرآن يؤكد نزعة بن نبي الفكرية والفلسفية إلى البحث عن سند علمي من داخل العقيدة، فوجد في القرآن وفي عناصر الدين الأخرى مصدرا غنيا يستمد منه رؤاه، وتفسيراته للظواهر الاجتماعية المختلفة، خاصة ما يتصل منها بقضية الحضارة، فمن هذا المصدر استمدّ ابن نبي آراءه في الحراك الاجتماعي والتاريخي ليخلص إلى أن الدين هو العنصر الأول الذي كان ولازال له تأثير بالغ في التطورات التاريخية لأي مجتمع في العالم، أمّا توينبي فقد أرجع التغيرات التي تحدث في تاريخ أيّ أمة إلى عوامل طبيعية بالدرجة الأولى، وبالرغم من أن مالك بن نبي وقف موقف المعجب من توينبي إلى حدّ ما، إذ اعتبر تفسيره مهمّ جدّاً في مراحل التاريخ الإنساني، ولذلك أعاد صياغة تفسيره إلا أنه تجاوزه حين اعتبر أن التفسير الطبيعي غير كاف لتفسير منشأ الحركة التي ولدت المجتمع الإسلامي وغاياته التاريخية، وأعطى بديلا لتفسير هذه الحركة بالعوامل النفسية التي حقّزت القوة الروحية في هذا المجتمع⁽²⁹⁾، نحو ما هو أسمى.

فمالك بن نبي إذا يرد سر حركة المجتمع الإسلامي إلى العوامل النفسية.

خاتمة

لقد اهتم توينبي بدراسة الحضارات وركز على الخصائص التي ميزت الحضارات عن بعضها البعض مؤكدا على أن قانون التحدي والاستجابة ينطبق على جميع الحضارات؛ فراح يطبقه على الحضارة الإسلامية متتبعا مراحل حركة المجتمع الإسلامي من ظهوره الذي كان استجابة - حسب نظريته- ناجحة لتحدي الهيلينية، ثم مروره عبر مراحل بعدة تحديات تلتها عدة استجابات إلى أن يصل المجتمع الإسلامي إلى نهاية مساره التاريخي وأقول حضارته، عندما فشلت استجابته للتحدي الأكبر وهو الحضارة الغربية الحديثة، ولكن يبقى الأمل في عودة الحضارة الإسلامية في المستقبل حسب نظرة توينبي التفاؤلية. وقد اطلع مالك بن نبي على نظرية توينبي فأقنعتة إلى حد ما فراح يبحث لها عن سند في مرجعيات الإسلام فوجد أن القرآن

- (9): جاسم محمد سلطان، فلسفة التاريخ الفكر الاستراتيجي في فهم التاريخ، أم القرى، د.م، ط1، 2005م، ص70، 71.
- (10): أحمد محمود صبيحي، في فلسفة التاريخ، ص287.
- (11): المرجع نفسه، ص288، 189.
- (12): رأفت الشيخ، تفسير مسار التاريخ، ص109.
- (13): عبد الله عقيل سليمان العقيل، من أعلام الدعوة والحركة الإسلامية المعاصرة، تق: مصطفى مشهور وآخران، دار النشر والتوزيع الإسلامية، القاهرة _ مصر، ط4، 2006م، 130، 131. وينظر: فوزية بريون، مالك بن نبي عصره وحياته ونظريته في الحضارة، دار الفكر، دمشق _ سوريا، ط1، 2010م، ص17.
- (14): مالك بن نبي، مذكرات شاهد للقرن الطفل، تر مروان القنواطي، دار الفكر، دمشق _ سوريا، ط1، 1996م، ص109. وينظر: أسعد السحمراني، مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا، دار النفائس، بيروت _ لبنان، ط1، 2000م، ص71. وينظر أيضا: نور الدين مسعودان، مالك بن نبي حياة وأثار، دار النون، الجزائر، د.ط، د.ت، ص6، 7.
- (15): مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، تر: عبد الصبور شاهين، دار الوعي، الجزائر، ط1، 2013م، ص17، 18.
- (16): المرجع نفسه، ص(17، 10، 9-19).
- (17): نفسه، ص26، 27.
- (18): لخضر شريط، في الحركة التاريخية وتفسير التطور الحضاري عند مالك بن نبي، تق: عبد الكريم غريب، منشورات عالم التربية، الجزائر، ط1، 2008م، ص77.
- (19): فوزية بريون، مالك بن نبي، ص170.
- (20): مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، تق محمد لمبارك، دار الوعي، الجزائر، ط1، 2013م، ص25/1.
- (21): فوزية بريون، ص171.
- (22): المرجع نفسه، نفس الصفحة.
- (23): مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ص24.
- (24): المرجع نفسه، ص24. وينظر: فوزية بريون، ص171.
- (25): مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ص24، 25.
- (26): المرجع نفسه، نفس الصفحة.
- (27): نفسه، ص24.
- (28): نفسه، ص25.
- (29): ينظر: فوزية بريون، ص172.